**نظرية التلقي وإطلاق دور القارئ**

**محاضرة نقد ادبي حديث \قسم اللغة العربية \ المرحلة الرابعة**

**(د. علي محمد ياسين)**

تعددت المناهج النقدية وتنوّعت وفقا للزاوية التي تنظر من خلالها للنص الأدبي فإذا كان المنهج النفسي يركّز على القضايا الشعورية واللاشعورية التي مرّ بها المبدع، فإنّ المنهج الاجتماعي له زاوية خاصّة، فهو ينظر للنص الأدبي على أنّه مرآة تعكس الواقع بطريقة مباشرة قائمة على المحاكاة حرفيّة كانت أو جدليّة، وإذا كان المنهج البنيوي اللساني يرى في النص الأدبي بنية منعزلة عن السياقات التي أفرزته، وما هذه البنية في النهاية إلاّ نسق من العناصر اللغوية القائمة على علاقات إمّا اختلافيّة أو ائتلافيّة؛ فإن منهج القراءة يعيد منح الثقة للقارئ موليا إياه قيمة عالية أثناء تفاعله مع النص بغية تأويله وخلق صورة أخرى جديدة لمعناه لم تكن موجودة من ذي قبل، وسنحاول في السطور القادمة أن نوجز باختصار شديد لأهم الأسس والمرتكزات التي يستند إليها منهج التلقي عند أهم روّاده ومدارسه .

كان ظهور البوادر الأولى لنظريّة التلقي بألمانيا الشرقيّة أواسط الستينيات في أحضان مدرسة (كونستانس) وبرلين الشرقيّة ، وقد استندت هذه النظريّة في أصولها المعرفيّة الأولى على الفلسفة الظاهراتيّة التي تؤمن بالذات وبقدرتها على الحضور في الأشياء وبكون الوعي حادثا ومكتملا بها، لأنّ ( إدراك معنى الظاهرة قائم على الفهم ونابع من الطاقة الذاتيّة الخالصة الحاوية له ) وهذا يعني إعادة القيمة للبعد الذاتي في محاولته لتحديد قيمة البعد الموضوعي وجوهره. إذ إنّ نظرية ظاهراتية الفن ترى أنّ العمل الأدبي هو ليس النص الأدبي بحدّ ذاته، وإنّما هو أيضا تلك الأفعال المتعلّقة به من جراء عملية الاستجابة له، وبذلك حاولت هذه النظريّة أن تنأى بنفسها عن النظريات الأخرى التي أهملت القارئ بوصفه ذاتا فاعلة في مقاربة النص فراحت تتقصى المعنى من النص بوسائل تعسفيّة كالتركيز على إحالات المرجع الواقعي أو اعتماد الوسائل البيبلوغرافيّة للوصول إلى ما يحيط بالمبدع من ظروف حياتيّة وشخصيّة، أو في عزل النص عن سياقات إبداعه وتلقيه ومعاملته على أنّه بنية لغويّة منغلقة على نفسها .

إنّ أهم ما يمكن أن يميّز المدرسة الألمانيّة هو وجود اتجاهين كبيرين متباينين هما: اتجاه جماعة برلين وجماعة (كونستانس)، حيث قامت الأولى على مهاد نظري فلسفي يستمد تراثه من النظرية الماركسيّة معتقدة أنّ التواصل الفني يقوم على أربعة عناصر هي : المؤلف والنص والمتلقي والمجتمع ، ولذلك فقد أخذت هذه الجماعة مآخذ عديدة على جماليات التلقي التي دعت لها مدرسة (كونستانس) ولعلّ أهمّها هي الطريقة التي تفصل فيها بين العلاقة الجدليّة القائمة بين الإنتاج والاستهلاك، حيث سيؤدي الفصل بين الإنتاج والتلقي إلى فقدان كلّ قيمة وكل طموح من أجل بناء نمط استبدالي جديد.

أما جماعة (كونستانس) فيعود لها الفضل في وضع الأسس النظرية لما يعرف بـ(جماليات التلقي) التي أعادت للقارئ قيمته الحقيقيّة وجعلته قطبا تقوم عليه نظريتها الفلسفيّة والأدبيّة بل زادت أن جعلته داخلا في العملية الإبداعيّة ذاتها، ولم تول هذه الجماعة شأنا للمجتمع كما فعلت جماعة برلين لأنها ترى أنّ المجتمع موجود في النص وفي القارئ ومتضمّن فيهما.

إن أهم مُنظّري هذه الجماعة هما هانز روبرت ياوس، وفولفغانغ آيزر، ولعلّ أهم ما جاء به الأوّل هو أفق التوقعات الذي استخدمه في وصف المقاييس التي يتّبعها القرّاء في الحكم على النصوص الأدبيّة في أي عصر من العصور، وهي مقاييس تسهم في تحديد ما هو شعري أو أدبيّ ودرجة اختلافه عمّا هو غير شعري، وغير أدبيّ للغة ذاتها.

ويرى ياوس أن (الأثر الفنّي لا يمكن أن يكون معزولا بصورة كاملة عن كل ما يمكننا أن ننتظره منه، فالعمل الأدبي يظلّ مكيّفا بالغيريّة أي بالعلاقة بالآخر بوصفه ذاتا مدركة، وحتى في الحالة التي يكون فيها العمل إبداعا لغويّا صرفا يُلغي الانتظار أو يتجاوزه فإنّه يفترض معلومات مسبّقة أو توجيهات للانتظار ... أي أنّ العمل مهما بلغت درجة إغراقه في الجانب الشكلي فإنّه ينطوي على كم من المعلومات المسبّقة التي توجّهه نحو الانتظار والتوقّع، وهذه المعلومات تقاس بها درجة الجدّة والطرافة ومن ثمّ فإنّ أفق الانتظار والتوقّع هو ذاك الذي يتكوّن لدى القارئ بواسطة تراث أو سلسلة من الأعمال المعروفة قبلا، وبالحال الخاصّة التي يتكوّن عليها الذهن ، وتنشأ مع بروز الأثر الجديد عن قوانين جنسه وقواعد لعبته، وكما أنّه لا يوجد تواصل باللغة لا يمكن إرجاعه إلى معيار أو اصطلاح علم اجتماعي أو مشروط بسياق ، فكذلك لا يمكن أن نتصوّر أثرا أدبيّا يوجد داخل ضرب من الفراغ الإخباري ، ولا يرتهن بأي وضعيّة مخصوصة للفهم ، ووفق هذا المعيار فإن كلّ أثر أدبيّ ينتمي إلى جنس ، وهذا يؤكّد بكل بساطة على أنّ كلّ أثر يفترض أفق توقّع ، أي مجموعة من القواعد سابقة الوجود لتوجيه فهم القارئ وتمكينه من تقبّل تقييميّ ) ومعنى ذلك أنّ علاقة النص الفردي بسلسلة النصوص الأخرى المنتمية لجنسه تظهر وكأنّها مسلك إبداع وتحرير متواصل لأفق ما، أي أن النص الجديد يستدعي إلى ذهن القارئ أفق انتظار ونظام يعرف من خلال النصوص السابقة وهو نظام يتعرّض دائما لتغييرات وخروقات وإضافات عديدة أو قد يعاد إنتاجه كما هو.

ونستنتج مما سبق أنّ ياوس افترض في القارئ أن يكون ملمّا بمعرفة النصوص والآليات التي تشتغل وفقا لها تلك النصوص، وهذا لا يتأتى إلاّ من المعاشرة الطويلة التي تمنح القدرة على فرز ما يتراكم من هذه النصوص مثلما تكسب تلك المعاشرة خبرة في رصد تعاقبها الزمني وما يحدث من خروقات وتغيير وتشويش على نظم تلك النصوص والتقاليد الفنيّة التي لازمتها وهي تصل إلى القارئ الحصيف عبر الأزمنة، أما بالنسبة إلى القطب الآخر من أقطاب مدرسة (كونستانس) (فولفغانغ آيزر) الذي كان له فعل المساهمة في تطوير نظرية التلقي، فإنّ دوره يكمن من خلال تركيزه على مفاهيم الظاهراتيّة وباعتماده على علم النفس واللسانيّات والإنثربولوجية متأثّرا بالفيلسوف البولندي روما ن إنجاردن ومطوّرا لأفكاره فيما بعد.